

وقد ظل المغول يُلَوِّنُ أمور المسلمين زهاء قرن من الزمان «٦٥٤ - ٧٥٠» هجرية، وهم على وثنتهم وجهالتهم، فلم يستقم لهم أمر، ولم يطرد لهم نظام، ثم بدا لهم سيئات ما عملوا، ورأوا أنهم مضطرون إلى اعتناق الإسلام ليسهل عليهم حكم شعوبه، ومحتاجون إلى العلم ليحسنوا تديير ملكهم، فكان من بعضهم إبقاء على آثار المسلمين، وإكرام لعلماء اللغة والدين، وإنشاء للمدارس والمساجد، وكانوا بهذا الصنيع مكفرين عن سيئات أعمالهم التى اقتترفوها فى غمرة جهلهم وثورة فتكهم وضلالهم، ولكن أنى لهم أن يأتوا بمعشار ما أبادوا من ثمرة قرون، تضافرت فيها همم فحول.

وكان الزمان قد خبأ للشام بقية مما يُضامُّ به الكرام على يد مسلم من سلالة التار هو «تيمور لُنك» الذى ظل يفتح البلاد، ويسوم العباد سوء العذاب، حتى وصل إلى آسيا الصغرى فانتزعها من السلطان «بايزيد» انتزاعاً، واقتنصه أسيراً، ولم تمتنع عليه الشام فألقى عصاه فيها، واستولى عليها كلها، وكأنه شاقه ما عمله سلفه «هولاكو» فجعله قدوته، بل لقد فاقه عدواناً وطغياناً.

إذ خرب المدن وقاتل العلماء، واشتد فتكه بالعرب، حتى يقال إنه بنى من رؤوسهم قلاعاً واهراماً، ولكن الله صان مصر من عبثه وطغيانه، وحفظ الكنانة وأهلها من عتو أهله وطوفانه، ووقاهم سيئات ما مكروا.

فصارت مصر حرماً آمناً آوت إليها الخلافة الإسلامية، ولجأ إليها من استطاع الفرار من هذه المحن، واعتصم بها من أفلت من تلك الفتن، وخلفت القاهرة بغداد فأصبحت مقر الخليفة العباسى، وعاذ بها العلماء الذين خلصوا من أهوال الفزع والإضطراب، فصارت معقد آمال المسلمين، يؤمها كل قاصد، وينهل منها كل وارد، فى ظل المماليك الشجعان، أباة الضيم وناشرى العلم.

وكانوا جدَّ حريصين على تخليد ذكراهم فتنافسوا فى إقامة المساجد وإنشاء المدارس والمعاهد؛ لإقامة الشعائر الدينية وإحياء ما درس من العلوم الشرعية والعربية، وكانوا بهذا للإسلام نعم العون فقد عوضه الله بعملهم فى مصر ما فاته فى كثير من بلاد الله.
